﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فُتِحَتۡ يَأۡجُوجُ وَمَأۡجُوجُ وَهُم مِّن كُلِّ حَدَبٖ يَنسِلُونَ ٩٦ وَٱقۡتَرَبَ ٱلۡوَعۡدُ ٱلۡحَقُّ فَإِذَا هِيَ شَٰخِصَةٌ أَبۡصَٰرُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَٰوَيۡلَنَا قَدۡ كُنَّا فِي غَفۡلَةٖ مِّنۡ هَٰذَا بَلۡ كُنَّا ظَٰلِمِينَ ٩٧﴾ [الأنبياء: 96 - 97]

❁ مُناسَبَةُ الآيَتَيْنِ لِما قَبْلَهُما:

الانتقالُ من التَّنبيه على فواتِ التَّوبة إلى ذِكْر علامةِ القيامة

لمّا حرّم اللّهُ تعالى في الآية السّابقة ﴿وَحَرَٰمٌ عَلَىٰ قَرۡيَةٍ أَهۡلَكۡنَٰهَآ أَنَّهُمۡ لَا يَرۡجِعُونَ﴾ رجوعَ المُهلَكين إلى فرصةِ التّوبة؛ حدّد سبحانَه هنا أمَدَ ذلك التّحريم، وبيّن أنَّه إلى وقت مُداهمة السّاعة، وذكرَ دليلًا من أدِلّتها، وشَرْطًا من أشراطها، فقال ﷻ: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فُتِحَتۡ يَأۡجُوجُ وَمَأۡجُوجُ﴾، أي: أمَدُ ذلك أن تُفتَح يأجوجُ ومأجوجُ، ويقتربَ الوعدُ الحَقّ، ويَفْجَأهُم فتشخصَ أبصارُهم، ولا تَطْرُفَ من هول المفاجأة.

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿فُتِحَتۡ﴾: (فتح) أصْلٌ يَدُلُّ على خلافِ الإغلاقِ، والفَتْحُ: إزالةُ الإغلاق والإشكال، يُقالُ: فَتَحْتُ البابَ وغيرَهُ فَتْحًا، ثُمَّ يُحمَلُ على هذا سائرُ ما في هذا البِناءِ[1]، وفاتِحَةُ كلِّ شيءٍ: مَبْدَؤه الَّذي يُفتَح به ما بعدَه[2]، والمقصود بالفتح في الآية: التَّخليةُ؛ أيْ: فَتْحُ السَّدِّ الَّذي هو حائلٌ بينهم وبينَ الانتشارِ في أنحاءِ الأرضِ بالفسادِ[3].

2) ﴿يَأۡجُوجُ وَمَأۡجُوجُ﴾: بالهمز: من أجَّتِ النّار تَئِجُّ: إذا سمعتَ صوتَ لَهَبِها، أو من الماء الأُجاج، وهو الشَّديدُ المُلوحةِ المُحْرِقُ من مُلوحته، وقيل: إنَّ اشتقاقَهما من الأجِّ وهو سُرعةُ العَدْوِ، وقيل:

(1) ابن فارس، مقاييس اللُّغة، والرّاغب، المُفردات: (فتح).
(2) الرّاغب، المُفردات: (فتح).
(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 17/ 147.

من الأجَّةِ؛ وهي الاختلاط والاضطراب، وهما غيرُ مصروفيْن[1]، وقيل: يأجوج ومأجوج اسمان أعجميّان، وهما قبيلتان من بني آدمَ، كثيرتا العدَدِ، من ولد يافِث بن نوحٍ عليه السلام، يخرجان في زمن عيسى عليه السلام آخر الزَّمان، ويُفسدان في الأرض حتَّى يهلكَهُما اللّهُ تعالى[2]، قال الأخفش: من همز يأجوج ومأجوج يجعل الألف منَ الأصل؛ يقول: يأجوج (يفعول)، ومأجوج (مفعول)، كأنّه من أجيج النّار، ومَن لا يهمز يجعل الألفيْن زائدتيْن؛ يقول: ياجوج من يَجَجتُ، وماجوج من مَجَجت، وهما غير مصروفيْن[3].

3) ﴿حَدَبٍ﴾: هو ارْتِفاعُ الشَّيْءِ، والحَدَبُ: حَدورٌ في صَبَبٍ، ومِن ذَلِك: حَدَبُ الرّيحِ وحَدَبُ الرَّمْلِ، والجمعُ: الحِداب[4]، والحَدَبة: موضع الحَدَب من ظهْر الأحْدَب[5]، وناقة حدباء تشبيهًا به، ثمّ شُبّه به ما ارتفع من ظهر الأرضِ؛ فسُمّي حَدَبًا[6]؛ وهو المعنى المُراد في الآية الكريمة.

4) ﴿يَنسِلُونَ﴾: النَّسْل: الانْفِصالُ عنِ الشَّيْءِ والانْسِلالُ عَنهُ، ونَسَلَ الشَّيْءُ نُسولًا: خَرَجَ، وسَقَطَ[7]، والنَّسَلان مِشْيةُ الذّئب إذا أسرع، ونَسْلُ الرَّجل: ولدُه وولدُ ولدِه، والنّاسُ نَسْلُ آدم، وسُمّي نسلًا لأنَّهُ يَنْسَلُّ؛ أيْ: ينفصلُ من أصله، وقد نَسَلَ في العَدْوِ يَنْسِلُ ويَنْسُلُ نَسْلًا ونَسَلانًا؛ أيْ: أسرع[8]، والمُرادُ بالنَّسلِ في الآيةِ: المَشْيُ السَّريعُ؛ لأنَّ ياجوجَ وماجوجَ لمّا انتشروا في الأرضِ؛ انتشروا مُسْرِعين كالذِّئابِ، جياعًا مُفسِدينَ[9].

5) ﴿شَٰخِصَةٌ﴾: (شخص) أصْلٌ يدلُّ على ارْتِفاعٍ في شيءٍ[10]، ومن ذلكَ الشَّخْص: كلُّ جِسْمٍ لَهُ ارْتِفاعٌ وظُهورٌ، والمُرادُ بِهِ إثباتُ الذّاتِ، فاسْتُعير لها لفظُ الشَّخْصِ[11]، ومن ثَمَّ يُحمَلُ على ذلكَ، فيُقال: شخَصَ الرَّجلُ ببصره إذا أحَدَّ النَّظرَ رافعًا طَرْفَه إلى السَّماء،

(1) الخليل، العين، والأزهريّ، تهذيب اللُّغة، والجوهريّ، الصّحاح، والزّبيديّ، تاج العروس: (أجج).
(2) البركتيّ، التّعريفات الفقهيّة، ص: 244.
(3) الجوهريّ، الصّحاح، وابن منظور، لسان العرب: (أجج).
(4) الأزهريّ، تهذيب اللُّغة، وابن فارس، مقاييس اللُّغة: (حدب).
(5) الخليل، العين: (حدب).
(6) الرّاغب، المُفردات: (حدب).
(7) ابن عباد، المحيط في اللُّغة، وابن فارس، مقاييس اللُّغة: (نسل).
(8) الأزهريّ، تهذيب اللُّغة، والجوهريّ، الصّحاح: (نسل).
(9) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 17/ 150.
(10) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (شخص).
(11) ابن منظور، لسان العرب: (شخص).

ولا يكون الشّاخص إلّا كذلك[1]، وشخَص من مكانٍ إلى مكانٍ إذا سار في ارْتِفاع، فإن سار في انحدارٍ فهو هابط[2]، وشَخَصَ بَصَرُ فُلانٍ إذا فتحَ عينيَه لا يَطرِفُ[3]، والشُّخوصُ في الآية مُرادٌ بهِ: إحدادُ البَصَرِ دونَ تحرُّكٍ كما يقعُ للمَبهوتِ[4].

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

تُبيِّن الآيتانِ أنَّ قُرى الكفرِ تبقى في كفرِها وغيِّها وعنادِها إلى وقت فتْحِ أبوابِ الشَّرّ من يأجوج ومأجوج، وخروجِهم من كلّ مكانٍ مرتفع من الجبال والهضاب، يُسرعون إلى البغْي والعدوان على خَلْق اللّه تعالى، واقترب بخروجهم تحقيقُ الوعدِ الحَقّ بِالبَعْث، إذ يُهلِك اللّهُ تعالى الخلائقَ، ثمّ يبعثُهم ويحشرُهم إلى ساحة الحساب؛ حيثُ الأهوالُ الجِسامُ؛ فإذا أبصارُ الكافرين الَّذين أنكروا البعثَ شاخصةٌ لا تطرُف هَلَعًا، يقولون من شِدّة الكرب: يا عذابنا الشّديد الَّذي ينتظرنا، قد كنّا في دُنْيانا في غفلة عن هذا اليوم؛ بل كنّا ظالمين لأنفسنا بالإصرار على الكفر[5]، حيثُ نَبَّهَتْنا الآياتُ والنُّذُرُ فلم نتنبّه للخَطَر المُنتَظَر، وبَقينا كافرين بالبعث والحساب؛ فحَقَّ علينا قولُ ربِّنا بالخُلود في العذاب المُهين[6].

أوّلُ مَن يُعاقب الكفارَ يومَ القيامة أنفسُهم؛ وذلك بالتَّحسُّر والتّندُّم لِفوات التّوبة

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغيُّ:

معنى ﴿حَتَّىٰٓ﴾ ودلالتُها الارتباطيّة:

وجْهُ تَعَلُّقِ ﴿حَتَّىٰٓ﴾ بما قبلَها وما بعدها هنا دقيقٌ؛ وذلك لوقوع ﴿إِذَا﴾ الشّرطيّة بعدها، مِمّا يُرجِّح أنّ ﴿حَتَّىٰٓ﴾ "ابتدائيةٌ – وهي الَّتي

يُرخي اللهُ تعالى للكفّار العنان حتّى تحين آجالُهم فلا يَبقى لهم عذرٌ

(1) الخليل، العين، وابن دريد، جمهرة اللُّغة: (شخص).
(2) ابن دريد، جمهرة اللُّغة: (شخص).
(3) الأزهريّ، تهذيب اللُّغة: (شخص).
(4) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 17/ 151.
(5) مجمع البحوث، التَّفسير الوسيط: 6/ 1155.
(6) مجمع البحوث، التَّفسير الوسيط: 6/ 1155.

يُحكَى بعدها الكلامُ، والكلام المَحكيّ هنا جُملة الشّرط والجزاء – "[1]، فهي حرفٌ لابتداء الغاية، أمّا انتهاء الحدثِ المبدوء بها فيُتَرَقَّبُ في جواب ﴿إِذَا﴾ بعدَها، والمعنى على هذا: أنّ فتح سدِّ يأجوجَ ومأجوجَ وبدايةَ نَسْلِهم من كلِّ حَدَب في كلِّ طريقٍ هو لحظةُ شخوصِ أبصارِ المُهلَكين؛ وهو بداية الأحداث الجِسام.

أمّا موقعُ ﴿حَتَّىٰٓ﴾ هنا بالنّسبة للحُكْم السّابق بعدم رجوع المُهلَكين ﴿لَا يَرْجِعُونَ﴾ فتُعَدُّ ﴿حَتَّىٰٓ﴾ "حرفَ انتهاءِ غايةٍ لامتناع الرّجوع؛ فهي مُتعلِّقة بـ ﴿وَحَرَٰمٌ﴾"[2]؛ أيْ: "يستمر الامتناع – امتناع رجوعِهم – إلى هذا الوقت، ولا عملَ لها في ﴿إِذَا﴾"[3] حينَئِذٍ، وقد جُمِعَ بينَ الوُجهتيْن؛ أيْ: أن تكون غايةً لامتناع الرّجوع؛ فهي متعلّقة بـ ﴿وَحَرَٰمٌ﴾ على أنّها حرف غاية وجَرّ، وأن تكون ابتدائيّةً[4].

نوعُ ﴿إِذَا﴾ ودلالتُها:

فتحُ سدِّ يأجوجَ ومأجوجَ حتميٌّ بصرف النّظر عن حقيقةِ معناه

﴿إِذَا﴾ في قوله تعالى: ﴿إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ﴾ ظرفٌ لِما يُستقبل من الزّمان، متعلِّقٌ بمحذوف تقديره: (قالوا)[5]: ﴿يَٰوَيْلَنَا قَدْ كُنَّا فِي غَفْلَةٍ﴾، وهي توحي هنا بالقطع بِتحقُّق مدخولها، وأنّ سَدَّ يأجوجَ ومأجوجَ يومًا ما مفتوحٌ قطعًا لا شَكّ في ذلك، وأنّه حين يُفتَح سيكونون كالأمواج الهادرة تَفيض بهمُ المرتفعاتُ والمُنخفضات، لا يقوم لهم أحدٌ إلّا بإذن الله تعالى، وفي ذلك تحذيرٌ من شَرّهم، ومن وُجوب ترقُّبِ فتحِه للحَذَرِ منهم.

ثراءُ الشّرط بتقدير الجواب:

تـقـديـرُ فـعـلِ الـقـول جـوابًـا لـلـشَّـرط أولى الأقوالِ بالسّياقِ

الشّرط بـ ﴿إِذَا﴾ في قوله تعالى: ﴿إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ﴾

(1) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 6/ 362.
(2) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 6/ 362.
(3) العُكبريّ، التّبيان في إعراب القرآن: 2/ 927.
(4) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 6/ 362.
(5) الدّعّاس، إعراب القرآن: 2/ 297.

يتجلَّى في تحديد جوابها؛ لأنَّ تحديده يذهب بذِهْن القارئ إلى أكثر من جواب؛ من ذلك: أن يكون الجواب: ﴿وَٱقۡتَرَبَ ٱلۡوَعۡدُ ٱلۡحَقُّ﴾ وتكون (الواو) زائدة؛ وهو قول ضعيف، أو أن يكون الجواب: ﴿فَإِذَا هِيَ شَٰخِصَةٌ أَبۡصَٰرُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾؛ والمعنى: (إذا فُتِحَت يأجوجُ ومأجوجُ باغتَهم هولُ ما يرون، فَشَخَصَت أبصارُهم)، أو أن يكون الجوابُ: قالوا ﴿يَٰوَيۡلَنَا﴾ ثّم حُذِفَ (قالوا)؛ وهو قولٌ حَسَنٌ[1]، ومثالُه قولُه جلّ وعزّ: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءَ مَا نَعۡبُدُهُمۡ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ﴾ [الزّمر: 3]؛ قالوا: ﴿مَا نَعۡبُدُهُمۡ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ﴾ [الزمر: 3]، وحَذْفُ القول كثيرٌ[2]، وهذا التّقدير أقواها.

بلاغةُ الكناية في مُفردةِ ﴿فُتِحَتۡ﴾:

أهـــلُ الـشّـرّ مكبوتون؛ فإن أُتيحَتِ الفُرصة عَـــمَّ شـرُّهـم وصَعُب كَبْحُهُم

الفتح في قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فُتِحَتۡ﴾ بمعنى: "الإرسال"[3]؛ أي: "إخراجُهما عن السّدّ الَّذي جُعِلا وراءَه، وكأنّهما قُيِّدا بذلك السَّدّ، فإذا ارتفع السّدُّ انفتحا"[4]، وفتح السَّدِّ من أشراط السّاعة[5]، وآثَر النّظمُ الكريمُ التّعبيرَ بمُفردة ﴿فُتِحَتۡ﴾ كنايةً عن الإذن بخروجهم؛ لأنّ خطر خروجهم مُترتِّب على فتح السَّدِّ، والدّليل قولُه تعالى في سورة الكهف: ﴿فَمَا ٱسۡطَٰعُواْ أَن يَظۡهَرُوهُ وَمَا ٱسۡتَطَٰعُواْ لَهُۥ نَقۡبٗا ٩٧﴾ [الكهف: 97]؛ بما فيه مِنَ الدّلالة على مُحاولتهم ذلك، وبقرينة قوله ﷺ: "وَيْلٌ لِلْعَرَبِ مِنْ شَرٍّ قَدِ اقْتَرَبَ، فُتِحَ اليَوْمَ مِنْ رَدْمِ يَأْجوجَ ومَأْجوجَ مِثْلُ هَذِهِ وحَلَّقَ بِإِصْبَعِهِ الإِبْهامِ والَّتي تَليها"[6].

نُكْتَةُ التّعبيرِ بِصيغة المبنيّ للمفعول:

توجيهُ الأنظار لمقاصد الكلام منهجُ القرآن في بناءِ الأفهام

آثَرَ النّظمُ الكريم صيغةَ البناء للمفعول في قوله تعالى: ﴿فُتِحَتۡ﴾

(1) النّحّاس، إعراب القرآن: 3/ 57.
(2) النّحّاس، إعراب القرآن: 3/ 57.
(3) ابن الجوزيّ، نزهة الأعين النّواظر، ص: 462.
(4) الواحديّ، التّفسير الوسيط: 3/ 252.
(5) الماورديّ، النّكت والعيون: 3/ 470.
(6) أخرجه البخاريّ في صحيحه، برقم: (3346).

اقتصادًا في اللّفظ؛ وذلك لِلعِلْم بِمعالِج فتْحه، وهم يأجوجُ ومأجوجُ أنفسُهم الَّذين لا يزالون يحاولون ظهورَه فينزلقون، ويحاولون نقبَه فيَعجِزون، كما قال الله تعالى: ﴿فَمَا ٱسۡطَٰعُواْ أَن يَظۡهَرُوهُ وَمَا ٱسۡتَطَٰعُواْ لَهُۥ نَقۡبٗا ٩٧﴾ [الكهف: 97]، ولِلعِلْم بالآذِن ﷻ، وأنّه الله سبحانه لا شريك له، ولتوجيه الأنظار إلى خطورةِ ما بعدَ الفتح، لا إلى مَن هو الفاتح.

براعة تأنيث فعل ﴿فُتِحَتۡ﴾:

التأنيث لأُمَّة يأجوجَ ومأجوجَ وفتحُ السَّدِّ وسيلةُ انتشارهم

الذي سيُفتح هو سدُّ يأجوجَ ومأجوجَ، وقد جاء الفعل ﴿فُتِحَتۡ﴾ مؤنَّثًا، فيُسأل عن ذلك؟ وقد تأوَّل العلماءُ ذلك التّأنيث بأنَّ الَّتي فُتِحَتْ "جهةٌ يأجوجَ ومأجوجَ"[1]، أو أن يكون لتأويل يأجوجَ ومأجوجَ بالأُمَّة، ثمَّ يُقدَّر المُضاف وهو (سَدّ) فيُكتَسَب التّأنيثُ من المُضاف إليه، وفِعل الفتح قرينةٌ على المفعول[2]، والمعنى: "حتّى إذا فُتح سَدُّ يأجوج ومأجوج، مِثْل: ﴿وَسۡـَٔلِ ٱلۡقَرۡيَةَ﴾ [يوسف: 82]"[3]، وهذا من براعة الذِّكْر الحكيم.

توجيه القراءات القرآنيّة:

تنوُّع القراءات يُثري السّياقات بالدّلالات

قَرَأ ابن عامر وأبو جعفر ويعقوب ﴿فُتِّحَتۡ﴾ بالتّشديد، وقَرَأ الباقون ﴿فُتِحَتۡ﴾ بتخفيف التّاء، وقراءةُ "التّشديد تدُلُّ على كثرة التّفتيح، أو على كثرة الخارجين منَ الفتح، وإن كان فتحة واحدة كما أشار إطلاق قراءة الجماعة بالتّخفيف"[4]، كما أنّ التّشديد يوحي بالمبالغة[5] الَّتي تتناغم مع تلك الأمواج الهادرة من شَعْب يأجوجَ ومأجوجَ، بدليل اندفاعهم ﴿مِّن كُلِّ حَدَبٖ﴾ كما صرّح القرآن الكريم.

معنى الواو ودلالتها:

تدفُّقُ يأجوجَ ومأجوجَ لحظةَ خروجِهم دليلُ فظاعة شَرِّهم

الواو في قوله تعالى: ﴿وَهُم مِّن كُلِّ حَدَبٖ يَنسِلُونَ﴾ واوُ الحال

(1) النّيسابوريّ، إيجاز البيان: 2/ 565.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 17/ 149.
(3) النّحّاس، إعراب القرآن: 3/ 57.
(4) ابن الجزري، النشر: 2/ 258، والبقاعيّ، نظم الدّرر: 12/ 480.
(5) السّمرقنديّ، بحر العلوم: 2/ 441.

الَّتي تستحضِر صورتَهم وهم يتدفَّقون من كلّ حَدَب وصَوب، وقد آثَر النّظمُ الكريم التّعبيرَ عن هذه الحالِ بجملة ﴿وَهُم مِّن كُلِّ حَدَبٍ﴾ دونَ الحال المُفرد، كأن يُقال: (ناسلين من كلّ حَدَب)؛ لإفادة ما تَفيضُ به الجملةُ من دلالات التّقديم لـ (هم)، و﴿مِّن كُلِّ حَدَبٍ﴾ على ﴿يَنسِلُونَ﴾، والمضارَعة في ﴿يَنسِلُونَ﴾، إلى آخر تلك الدّلالات الَّتي تُتيحها الجملةُ، ولا يُطيقها المُفرد، وتلك الواو توحي بأن نَسْل يأجوجَ ومأجوجَ من كلِّ حَدَبٍ يكاد يكون في اللّحظة الَّتي يُفتَح فيها سَدُّهم مباشرةً كنايةً عن شِدّة شَرِّهمُ المحبوسِ عن الخَلْق.

غرضُ الجملة الاسميّة:

في التّعبير بالجُملة الاسميّة ﴿وَهُم مِّن كُلِّ حَدَبٍ يَنسِلُونَ﴾ ثراءٌ وغَناءٌ للتّركيب؛ لأنَّها أتاحت تقديمَ الضّمير (هم) على الخبر الفعليّ ﴿يَنسِلُونَ﴾؛ فأفاد القَصْرَ، إضافةً إلى ما تصرَّف فيه النّظمُ الكريم من تقديم القَيْد بالجارِّ والمجرور ﴿مِّن كُلِّ حَدَبٍ﴾ على المُسنَد ﴿يَنسِلُونَ﴾، ووراءَ كلّ خصيصة من تلك الخصائص إشاراتٌ بليغةٌ، وفي هذه الجملة الاسميَّة ثباتٌ مؤكَّدٌ في بيان ما الَّذي سيكون يومئذٍ.

أشـراطُ السّاعة أمـرٌ مُـحـقَّـقٌ لا مناصَ منه

معنى حرف ﴿مِّن﴾ ودلالتُه:

﴿مِّن﴾ في قوله تعالى: ﴿مِّن كُلِّ حَدَبٍ﴾ حرف ابتداءٍ؛ يُفصح عن بداية انبعاثِ الأفواج المُتدفِّقة من يأجوجَ ومأجوجَ، فإنّهم يطلعون ﴿مِّن﴾ كلّ شِعْبٍ، ومن كلِّ فَجٍّ مِن فِجاج الأرض؛ فهم ﴿مِّن كُلِّ حَدَبٍ يَنسِلُونَ﴾؛ وهذا يدلُّ على انتشارهم وكثرتهم.

فائدة التّعبير بلفظ العمومِ ﴿كُلِّ﴾:

التّعبير بلفظ ﴿كُلِّ﴾ في قوله تعالى: ﴿مِّن كُلِّ حَدَبٍ﴾ يُقرِّر أنّ تلك الأمواجَ الهادرة من جماعات يأجوجَ ومأجوجَ ستتدفّق من فِجاج الأرض جميعًا لكثرتها، لا يبقى فيها فَجّ إلّا ويخرج منه فوجٌ؛ وذلك

يأجوجُ ومأجوجُ سينتشرون في الأرضِ ويتكاثرون في العَدَد

كنايةٌ عن كثرتهم كثرةً تكاد تفوق الخيال؛ لذلك كانوا مبعثَ قلقٍ للعباد، فهم لا يقوم لهم شيءٌ، ولا يعترضهم أحدٌ إلّا داسوه، والدّليل على ذلك قولُ اللّه تعالى لعيسى ﷺ: "إنّي قَدْ أَخْرَجْتُ عِبادًا لي، لا يَدانِ لِأَحَدٍ بِقِتالِهِمْ، فَحَرِّزْ عِبادي إلَى الطّورِ، ويَبْعَثُ اللّهُ يَأْجوجَ ومَأْجوجَ، وهُمْ مِنْ كُلِّ حَدَبٍ يَنْسِلونَ"[1]، وسببُ ذلك التّدفُّق - من كلّ حَدَب - "أنّهم مُذْ سُدَّ عليهم السَّدُّ في جَهْد من فتح ذلك السّدّ، فلمّا فُتِح خرجوا مُسرعين، وهو ما ذُكِر: ﴿*وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ﴾ [الكهف: 99]"[2].

براعة التّعبير بمُفردةِ ﴿حَدَبٍ﴾:

يأجوجُ ومأجوجُ يأتون مُستعلينَ مكانًا وخَلْقًا

الحَدَب هو المكان العالي المُشرفُ من الأرض[3]، وقيل: الحَدَبُ: الأكَمَةُ، ومن كلّ جهة؛ ومن كل مكان[4]، وفي إيثار التّعبير بالحَدَب إيحاءٌ بأنَّ يأجوجَ ومأجوجَ يَعلَوْن ما يلقاهم؛ فيطؤونَه ويَمُرّون، لا يدانِ لأحدٍ بإيقافهم؛ وذلك مناسبٌ لتهديد الكافرين بعدم الرّجوع إلّا بخروجهم؛ لأنَّ خروجهم في حَدّ ذاته دمارٌ؛ وعليه فلا رجوعَ لهم أصلًا.

دلالةُ التّعبير بـ ﴿يَنسِلُونَ﴾:

يأجوجُ ومأجوجُ مُسرعون كالذّئاب مُتكاثِرون كالجراد

معنى ﴿يَنسِلُونَ﴾: يَطلُعون، والنّسل "منَ النَّسَلان، وهو كَمِشْيَةِ الذّئب إذا أسرع، والمعنى: (وهم من كلّ شيءٍ منَ الأرض يُسرعون)؛ يعني أنّهم يتفرَّقون في الأرض، فلا ترى أكَمَةً إلّا وقومٌ منهم يَهبِطون منها مُسرعين"[5]؛ فـ "إيثار التّعبير به هنا من نُكَت القرآنِ الغيبيّة؛ لأنّ يأجوجَ ومأجوج لمّا انتشروا في الأرض انتشروا كالذّئاب جياعًا مُفسدين"[6]، فالتّعبير بمُفردة ﴿يَنسِلُونَ﴾ يوحي بأنّهم يتدفَّقون تدفّقًا

(1) أخرجه مسلم في صحيحه، برقم: (2937).
(2) الماتُريديّ، تأويلات أهل السُّنّة: 7/ 376.
(3) النّحّاس، إعراب القرآن: 3/ 57.
(4) الماتريديّ، تأويلات أهل السُّنّة: 7/ 376.
(5) الواحديّ، التَّفسير الوسيط: 3/ 252.
(6) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 17/ 150.

لا ينتهي، أو يكون من التّناسل الَّذي لا يتوقّف جيلًا من جيلٍ، وقبيلًا بعد قبيل؛ وذلك أبلغُ في تصوير كثرتهم من أيّ مُفردةٍ أخرى يمكن أن تعبّر عن تلك الكثرة؛ مثل: يَخرجون، أو يَتدفّقون، أو تتوالى جماعاتُهم.

دلالة التّعبير بالمضارع ﴿يَنسِلُونَ﴾:

تتابعَ أفواجِ يأجوجَ ومأجوج وتجدُّدَ تدفُّقِها

تفي صيغةُ المُضارعة في الفعل ﴿يَنسِلُونَ﴾ بحقّ المقام؛ إذ تُفيد تتابعَ أفواجِ يأجوجَ ومأجوج، وتجدُّدَ تدفُّقِها تجدُّدًا وتدفُّقًا مُرعبًا لهؤلاء الكافرين المُتوَعَّدَيْن بموعد خروجهم، واستمرارِ ذلك زمانًا مُتطاوِلًا، ممّا يُقرّر أنّهم من الكثرة والخطورة بمكانٍ.

تعيينُ مَرجعِ الضّمير:

فتنة يَأجوج ومَأجوج عظيمةٌ؛ إذ يطلعون من كلّ ثنيَّةٍ ومُرتفَعٍ

في تعيين المقصود بالذين ﴿وَهُم مِّن كُلِّ حَدَبٍ يَنسِلُونَ﴾ قولان؛ الأوّل: أنّهم يأجوج ومأجوج، والثّاني: أنّهمُ النّاسُ جميعًا، يُحشرون إلى الموقف[1]، وقد رجّح ابنُ عطيّة أنّهم يأجوجُ ومأجوجُ؛ مُستندًا إلى حديث شريف فقال: "هُمْ يَأْجوجُ ومَأْجوجُ؛ لأنّهم يطلُعون من كلِّ ثنيَّةٍ ومُرتفَعٍ، ويَعُمّون الأرضَ، وذلك أنّهم من الكثرة بحيثُ قال رسول الله ﷺ: "يقول الله تعالى يوم القيامة لآدم: أخْرِج بَعْثَ النّار من ذُرّيتك، فيُخرج من كلّ ألفٍ تِسْعَمائة وتسعةً وتسعين"؛ قال: ففزع النّاسُ؛ فقال رسولُ الله ﷺ: "إنّ منكم رجلًا، ومن يأجوجَ ومأجوجَ ألفُ رجلٍ""[2]، وهو الأوْجه، وإلّا لَتَفَكَّك النّظم، "وأنّ يأجوج ومأجوج إذا كَثُروا - على ما رويَ في الخبر - فلا بُدّ من أن ينشروا فيظهر إقبالُهم على النّاس من كلِّ موضعٍ مرتفعٍ"[3].

معنى الواو ودلالتُها:

أحداثُ النّهايةِ كثيرةٌ وخطيرةٌ

الواو في جملة: ﴿وَٱقْتَرَبَ﴾ إمّا أن تكون قد عَطَفت فعلَ الاقتراب

(1) الماورديّ، النّكت والعيون: 3/ 472.

(2) ابن عطيّة، المُحرّر الوجيز: 4/ 100، والحديث أخرجه البخاريّ في صحيحه، برقم: (3170)، ومُسلم في صحيحه، برقم: (222).

(3) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 22/ 186.

"على محذوف، هو غاية ﴿حَتَّىٰٓ﴾ في قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فُتِحَتۡ يَأۡجُوجُ وَمَأۡجُوجُ﴾"[1]، والتّقدير: (حتّى إذا فُتحت يأجوجُ ومأجوجُ وهم من كلّ حدب ينسلون، وقع الفسادُ والاضطرابُ، واقترب الوعدُ الحقّ) ﴿فَإِذَا هِيَ شَٰخِصَةٌ أَبۡصَٰرُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾، "فكأنّه قيل: (فإذا فُتحت يأجوجُ ومأجوجُ، واقترب بذلك الوعدُ الحقّ، فاجأتهمُ القيامةُ بأهوالها)"[2]؛ وفي ذلك إشارةٌ إلى كثرة أحداث النّهاية وخطورتها، وإمّا أن تكون استئنافيّةً؛ حيثُ تنقُل الكلامَ إلى مقطعٍ جديدٍ من مقاطع المعنى؛ بناءً على أنَّ خروج يأجوجَ ومأجوجَ يكون في الدُّنيا، وأنَّه يقع منهمُ الفسادُ والإفساد، أمّا المعنى الجديد فما يكون يومَ القيامة من أهوال ﴿فَإِذَا هِيَ شَٰخِصَةٌ أَبۡصَٰرُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾.

بلاغةُ لفظِ الاقتراب:

الاقـــــترابُ محـمـولٌ على المَجاز الزَّمانيّ أو حقيقةِ الوقوعِ

يستعمل الاقترابُ في المحسوسات؛ لكنّه في قوله تعالى: ﴿وَٱقۡتَرَبَ ٱلۡوَعۡدُ ٱلۡحَقُّ﴾ مُستعملٌ في الزّمان؛ أي: اقترب يومُ القيامة والحساب، وبذلك تنتقل دلالةُ الاقتراب إلى المعنى المَجازيّ، الَّذي يوحي بتقارُب الزّمن، كأنّه يَضْمُر وينكمشُ ويتداخل، ويتسارع إلى بلوغ غايةٍ معيّنة، وهي قيامُ النّاس لِربّ العالَمين للحساب، وجائزٌ أن يكون للقُرْب الحقيقيّ، ويكون وجوبُها ووقوعُها في قوله تعالى: ﴿فَإِذَا هِيَ شَٰخِصَةٌ أَبۡصَٰرُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾؛ كقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمۡ لِيَوۡمٖ تَشۡخَصُ فِيهِ ٱلۡأَبۡصَٰرُ ۝٤٢﴾ [إبراهيم: 42][3]، "والاقترابُ على هذا اقترابٌ نسبيٌّ، على نسبة ما بقي من أجَل الدّنيا بما مضى منه؛ كقوله تعالى: ﴿ٱقۡتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلۡقَمَرُ ۝١﴾ [القمر: 1]"[4].

(1) الخطيبُ، التَّفسير القرآنيّ للقرآن: 9/ 955.
(2) مجمع البحوث، التَّفسير الوسيط: 6/ 1156.
(3) الماتُريديّ، تأويلات أهل السّنّة: 7/ 376.
(4) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 17/ 148.

والاقتراب "أبلغُ في القُرب من قَرُب"[1]؛ لأنّه "القربُ الشّديدُ والمُشارَفة؛ أي: اقترب الوعدُ الّذي وُعِدَهُ المشركون - وهو العذاب - بأنْ رأوْا النّارَ والحساب"[2].

معنى التّعريف في ﴿ٱلْوَعْدُ﴾:

المقصود بـ ﴿ٱلْوَعْدُ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَٱقْتَرَبَ ٱلْوَعْدُ ٱلْحَقُّ﴾ قيامُ السّاعة، وتعريفُه يُفيد شُهرتَه، وأنّه هو الوقتُ المعهود واليوم المشهود، يومُ البعثِ والحشرِ والنّشرِ للحساب، وقد ذُكِر باسم الوعد في قوله تعالى: ﴿كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ ۚ وَعْدًا عَلَيْنَآ ۚ إِنَّا كُنَّا فَٰعِلِينَ ﴿١٠٤﴾﴾ [الأنبياء: 104]، وفي تسمية القيامة (وعدًا) إشارةٌ إلى ما فيها من إحقاق الحقّ بينَ العباد؛ فيُقْتَصُّ للمظلوم، ويُكَرَّم المؤمنُ، وبناء على ذلك يكون الاكتراثُ لأهل الحَقّ والإيمان، والإهمالُ والتّحقير لأهل الظّلم والكُفر والطّغيان.

تسميةُ القيامة وغدًا لما فيها من إحقاق الحقّ بينَ العباد

سِرّ إيثارِ وصفِ القيامة بالوعد دون الوعيد:

﴿ٱلْوَعْدُ ٱلْحَقُّ﴾ هو يوم القيامة، وقيل: هو أجَل الموت[3]، وفي اختيار وصفِ القيامةِ بالوعد دون الوعيد إيحاءٌ بأنَّ الأصل فيه أن يكون للتّكريم، وأن يكون لإثابة المؤمنين، كما أنَّ فيه إشارةً إلى تقديم التَّكريم على التَّعذيب، وأنَّ القيامة ستكون وعدًا للصّادقين، وقد يسأل سائلٌ: كيف كان ذلك والسّياق يغلب في الوعيد؟! والجواب: أنَّ إظهار الوعدِ كرامةٌ، وإضمارَ الوعيدِ زيادةٌ في العذاب والتَّنكيل.

إظهارُ الوعد كرامةٌ وإضمارُ الوعيد عذابٌ وإهانةٌ

فائدةُ وصف الوعدِ بالحَقّ:

وَصْفُ الوعدِ بالحقِّ في قوله تعالى: ﴿وَٱقْتَرَبَ ٱلْوَعْدُ ٱلْحَقُّ﴾ يوحي بأنّ كلَّ وعْدٍ يوعَدُه النّاسُ في أمر الدّنيا وهْمٌ لا قيمةَ له بالقياس إلى وعد الآخرة، وأنَّ يوم الحساب الأُخرويّ - الّذي ينتظر النّاس - هو الحقُّ الثّابت الّذي

كلُّ وعدٍ في الدُّنيا يتلاشى عند مجيءِ الوعدِ الحقِّ

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 7/ 468.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 17/ 149.
(3) ابن عجيبة، البحر المديد: 3/ 499.

لا مَفرّ منه، ولا شَكّ فيه؛ فيجب على النّاس العملُ على هذا، والتّأهُّبُ له، والانشغالُ به وبما يتعلّق به من أسباب النّجاة والسّعادة الأبديّة دونَ سواه؛ فكأنَّه قيل: الوعدُ الوحيد الموصوف بالحقِّ هو يوم القيامة.

وفي التّعبير عن القيامة بـ ﴿ٱلْوَعْدُ ٱلْحَقُّ﴾ لَفْتٌ إلى ما وراءَه، وأنَّ هذا اليومَ ليس لمجرّد قيامة النّاس من القبور، وإنّما لما فيه من مظاهر التّكريم ومشاهد التّنكيل.

معنى الفاء ودلالتُها:

إذا كان الحَدَث الأوّل بهـذه الفظاعة؛ فما الظّنّ بما وراءَه؟

حرف الفاء في قوله تعالى: ﴿فَإِذَا هِيَ شَٰخِصَةٌ﴾ لعطف هذه الجملة على جملة ﴿وَٱقْتَرَبَ ٱلْوَعْدُ ٱلْحَقُّ﴾ وتقويةِ الرّبط الزّمنيّ بينهما؛ وللدّلالة على فوريّة شُخوص الأبصار لحظةَ رؤيتِهم بداياتِ أشراطِ السّاعة الكبرى؛ وفي ذلك كنايةٌ عن هَوْل الحَدَثِ الأوّل، وشِدّة فظاعتِه، فما الظّنّ بما وراءَه؟ فقد تأكّد لديهم ما كانوا يُكذّبونَه، وليس الخبرُ كالمعاينة.

بلاغةُ (إذا) الفجائيّة:

هـولُ المفاجآت يـومَ القيامة يسلِبُ الإنسانَ الحركةَ

(إذا) في قوله تعالى: ﴿فَإِذَا هِيَ شَٰخِصَةٌ﴾ هي الفُجائيّة، الّتي تُفيد شِدّة المُفاجأة، وقد باغتَهم ﴿ٱلْوَعْدُ ٱلْحَقُّ﴾ عَيانًا، بكلِّ ما فيه هنالك ممّا كانوا يُكذّبونه، ولا مهربَ لهم يوم يناديهم مُتحدّيًا: ﴿يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ إِنِ ٱسْتَطَعْتُمْ أَن تَنفُذُوا۟ مِنْ أَقْطَارِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ فَٱنفُذُوا۟﴾ [الرّحمن: 33]، كما قال ابن كثير: "وهذا في مقام الحشْر، الملائكةُ مُحْدِقَةٌ بالخلائق سَبْعَ صفوف من كلّ جانب، فلا يَقْدِر أحدٌ على الذّهاب"[1]؛ والمعنى: "تأخذهمُ القيامة بَغتةً، وتظهرُ أشراطُ السّاعة فجأةً، ويُقِرُّ الكاذبون بأنّ الذّنبَ عليهم؛ ولكن في وقتٍ لا تُقبَل فيه معذرتُهم، وأوانٍ لا ينفعُهم فيه إيمانُهم"[2].

(1) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 7/ 316.
(2) القشيريّ، لطائف الإشارات: 2/ 523.

بلاغةُ اقتران الفاء بـ (إذا) الفجائيَّة:

من بليغ توكيد عنصرِ الفُجاءَة اقـتـرانُ الـفـاء بـ (إذا)

(إذا) الفُجائيّة تقع في المُجازاة، سادَّةً مَسَدَّ الفاءِ، كقوله تعالى: ﴿إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ ۝٣٦﴾ [الرّوم: 36]، فإذا جاءت الفاءُ معها تعاونتا على وصل الجزاء بالشّرط فيتأكّد، ولو قيل: (إذا هي شاخصة)، أو: (فهي شاخصة)، كان سديدًا أيضًا[1]؛ لكنّه مع (إذا) الفُجائيّة أبلغُ؛ لكن يُفتَقد ذلك التّأكيد؛ أيْ: "فإذا حالُ الّذين كفروا وشأنُهم شخوصُ أبصارهم، وفتحُها على أهوال القيامة؛ بحيث لا تَطْرِفُ ولا تُغْمِضُ"[2].

بلاغةُ الكنايةِ في ضمير القِصَّة:

تنبيهُ المُخاطَبين عـلـى مُـهـمّـات الأُمور

﴿هِيَ﴾ في قوله تعالى: ﴿فَإِذَا هِيَ شَٰخِصَةٌ﴾ ضميرُ القِصّة؛ جاء كنايةً عن القِصّة؛ وهي تجري مَجرى الأمرِ والشّأن مع المُذَكَّر، وقيل: كنايةً عن لفظ ﴿أَبْصَٰرُ﴾ في قوله تعالى: ﴿هِيَ شَٰخِصَةٌ أَبْصَٰرُ﴾، ومثلها: ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ﴾ [الحجّ: 46]، وقيل: كنايةً عن العيون، وشخوصُها امتدادُها، فلا تَطْرُف، فتقديم ضميرِ الشّأن أو القِصّة، وبناءُ الكلام على إبهامه تنبيهٌ يستثير الذّهنَ لاستقبالِ أمرٍ خطير يأتي بيانُه بعدَه، واحتمالُ مجيء ضميرِ القِصّة ﴿هِيَ﴾ كنايةً عن هذه الأمور يُبيّن تواثقَ التّراكيب القرآنيّة الكريمة، ويُجلّي شيئًا من الثّراء الدّلاليّ لِلكَلِم العظيم، كما يوحي بِخطر هذه الأمورِ، وأنّها ممّا حقُّه العملُ له قبلَ مباغتةِ السّاعة وشخوصِ الأبصار، وتصلُّبِ العيون.

سِرّ التّعبير بـ ﴿شَٰخِصَةٌ﴾:

كنايةٌ عن تَسَمُّرِ الأبصار لفظاعة ما ترى

الشُّخوص: إحدادُ البصر دونَ تحرُّكٍ كما يقع للمَبْهوت[3]، وذلك يَعْتَري من الخوف المُفْرِط، أو عِلَّةٍ، أو نحوه[4]، وشخوصُ البصر كنايةٌ عن شِدّة الأخذ، وهول اللّحظة، فصاحبُه يُشْدَهُ فلا حِراكَ

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 3/ 135.
(2) مجمع البحوث، التّفسير الوسيط: 6/ 1158.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 17/ 151.
(4) ابن عطيّة، المُحرّر الوجيز: 4/ 100.

به، ولا قوّةَ له على شيء، وقد آثَر النّظمُ الكريم استعمالَ مُفردة ﴿شَٰخِصَةٌ﴾ لِدِقّة تصويرها اللّغويِّ لمُجرّد تَصلُّبِ أبصار الكافرين عند مُباغتتهم بأهوال القيامة.

نُكْتَةُ التّعبير باسم الفاعل ﴿شَٰخِصَةٌ﴾:

صيغة (فاعل) تُقيم في النّفس صورةً ثابتةً لمادّته اللّغويّة

صياغةُ ﴿شَٰخِصَةٌ﴾ باسم الفاعل للمُؤنّث: ﴿أَبْصَٰرُ﴾، مُتناغِمٌ مع الدّلالة اللّغويّة لِلشُّخوص الّذي هو إحدادُ النّظر دونَ أن يَطْرِف من الخوف المُفْرِط[1]؛ لما في دلالة الاسم عمومًا على الثّبوت على وضعٍ واحدٍ لا يَتغيّر، وفي صيغة (فاعل) خصوصيّةُ تصويرِ الحَدَث ثابتًا، وإقامتِه في النّفس ماثلًا بلا حِراك؛ فالدّلالة اللّغويّة والصّرفيّة كلتاهما تتآزران على تصوير الرّعب في عيون القوم بما يبعث على الخَشْيَة من تلك الحال، وهذا المعنى إنّما يُناسبُه التّعبير بالاسم الدّالِّ على الثُّبوت على حالة البَهْتِ، لا الفعلُ الدّالّ على الحركة والتّجدُّد.

غرضُ جمعِ ﴿أَبْصَٰرُ﴾:

لا يُفلتُ بَصَرُ كافرٍ من أخذةِ الرُّعب يومَ القيامة

جُمِع البصرُ على ﴿أَبْصَٰرُ﴾ لمراعاة جموع الَّذين كفروا الغفيرة؛ لأنَّهم على كلِّ حال أكثر من أهل الجنّة؛ إذ إنَّ أكثر النّاس كُفّارٌ، وقليلٌ من عباد الله تعالى الشّكور، كما قال الله تعالى: ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ ٱلشَّكُورُ ﴿١٣﴾﴾ [سبأ: 13]، وفي جمع ﴿أَبْصَٰرُ﴾ كذلك دليلٌ على عُموم هذا الوضعِ جميعَ أبصارهم، حتّى إنَّه لا يُفْلِتُ منهم بَصَرٌ من هذا الأسْر الرّوحيّ، والأسْر البدنيّ التّابع لأسْر الأبصارِ الأخّاذِ، وتقييدها بما أبصرت.

نُكْتَةُ التّعبير بالأبصار دون الأعين أو الأنظار:

البصرُ غايةُ النّظر وثمرةُ عملِ العين

عبَّر الذِّكرُ الحكيم بلفظ (الأبصار) في قوله تعالى: ﴿أَبْصَٰرُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ دونَ لفظ العيون والأنظار؛ لأنَّ الإبصارَ هو غايةُ النَّظر، وهو ثمرةُ عملِ العين؛ فنَبّه بذِكْر الأبصار إلى أنَّ غاية هذه

(1) ابن عطيّة، المُحرّر الوجيز: 4/ 100.

الحاسّةِ ووظيفتَها صارت حينَئِذٍ أسيرةَ مُبْصَرٍ مَهولٍ أبصَرتْهُ لا يمكنها الفكاكَ عنه.

فائدة التّعبير بالاسم الموصول:

الموصول عنصرُ تشويقٍ بإبهامِه وثـــراءٍ دلاليّ بِصِلَتِه

التّعبير بالاسم الموصول ﴿ٱلَّذِينَ﴾ عنصرُ تشويقٍ؛ وعنصرُ ثراءٍ دلاليٍّ؛ بما يُتيح من صياغة المعنى في فِعلٍ هو هنا ماضٍ، وهو رأسُ جملة الصّلةِ؛ فيدلُّ على التّحقُّق، وكلا الموصولِ وصلتِه يتآزرانِ على بيان سببيّة شخوصِ ﴿أَبْصَٰرُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾، وأنّ شخوصَها وتَصلُّبَها على هذا الوضع المُرعِب؛ إنّما هو كفرانُ ذلك اليوم والتّكذيبُ بأحداثه، فإذا عاينوه شُدَّتْ أبصارُهم إليه، وفَقدوا الحِراكَ، وسُلِبوا الإرادةَ تمامًا، وذلك كلُّه مأخوذٌ من دلالة الموصول وصلتِه.

نُكْتَةُ ذِكْرِ (الكفر) دونَ (الشّرك):

كـلُّ شِـركٍ كفرٌ وليس كـلُّ كفرٍ شِركًا

آثَر النَّظْم الكريم ذِكْر (الكفر) دون (الشِّرك) في جملة الصِّلة: ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾؛ لأنّ مادة (الكفر) صريحةٌ في التّكذيب التّامّ بوجود الله تعالى وباليوم الآخِر وما فيه مِن أحداث البعث والنّشور والحساب، كما أنَّ مادّة (الكفر) أعمُّ دلالةً من لفظ (الشّرك)؛ فهي تحوي أنواعًا من الكفر وأصنافًا من التَّكذيب، والشّركُ واحدٌ منها، فكلُّ شركٍ كفرٌ، وليس كلُّ كفرٍ شركًا.

غرضُ حذف جملة القول وبلاغة حرف النّداء (يا):

تـصـويـرُ هـولِ المَشْهَدِ بالنِّداءِ

يطوي النّظمُ الكريمُ (القولَ)؛ ليُسْرِعَ إلى حكاية مقولتِهم ﴿يَٰوَيْلَنَا﴾ مباشَرةً، إذ عنصرُ تعجيلِ النِّداء يدلُّ على هولِ المشهد، ولما فيه من تركيز المشهد حول ندائهم، وفي إيثارهم أداةَ نداءِ البعيد (يا) يُحاولون أن يُنفِّسوا بعضَ ما تَعتلج به نفوسُهم من ضيقٍ وهَمٍّ، وما يُكابدونه من معاناة وعذاب، فهم يُنادون بأداة البعيد المُشعِرة بِبُعْدِهم عن النَّجاة.

بلاغة الكناية في الدّعاء وأسلوب النّداء:

الـدّعـاءُ على النّفس نهايةُ اليأسِ وغايةُ الإفلاسِ

نداءُ الَّذين كفروا يومَ القيامة على الويل ﴿يَوَيْلَنَا﴾؛ دعاءٌ على النّفس بالويل، وفيه من جهةٍ أُخرى كنايةٌ عن ذُهولهم عنْ وجْه الصّواب، وذهابِ عقولهم عن فِعل ما يُنجي إن كان ثمّةَ ما يُنجي، كما أنّ في الدّعاء على النّفس بالويل والثّبور كنايةً عن اليأس التّامّ من وجود مُغيث؛ ممّا يَعكِس بعضَ ما هنالك من أهوالٍ وأخطار لا يمكن تصوُّرُها هنا في الدّنيا.

دلالةُ إضافةِ الويلِ إلى الضَّمير:

الاعترافُ بالذَّنب الآثـمِ عـنـوانُ الكافرين

إضافةُ لفظِ (الويل) إلى ضميرِ (نا) في نداء الكفّار البائس: ﴿يَوَيْلَنَا﴾ اعترافٌ منهم باستحقاقهم الانفرادَ بالويل والثّبور لعدم توفيقهم إلى الإيمان، وقد كان يُعْرَض عليهم بلا كُلفة، فقد صاروا اليوم وهم أحقّ النّاسِ بالويل والعذاب، وها هم يعترفون به مربوطًا بهم وبضميرهم: ﴿يَوَيْلَنَا﴾.

غرضُ التَّقييد بحرف ﴿قَدْ﴾:

توكيدُ الاعـترافِ وتأنيبُ النَّفسِ مسلكُ الكافرين

استعمل النَّظمُ حرفَ ﴿قَدْ﴾ في جملة ﴿قَدْ كُنَّا فِي غَفْلَةٍ﴾ لبيانِ إفصاح الكافرين عن حالِهم في الدّنيا، وأنَّهم كانوا في ضلالٍ مبين، وهو ما يُحقِّق اعترافَهم بالجريمة بمقولهم: ﴿قَدْ كُنَّا﴾؛ وفيه تأنيبٌ لأنفسهم وتَعْنيفُها لإنكارها ذلك في الدّنيا، ولرفضِها قبولَ الحقّ الَّذي جاء به الأنبياءُ السّابقُ ذِكْرُهم في السّورة الكريمة، وخاتمهم محمّد ﷺ، كما في ﴿قَدْ﴾ إقرارٌ بصدق ما كانوا يُكذِّبونه في الدّنيا.

دلالة ذِكْر لفظ ﴿كُنَّا﴾ النَّفسيَّة:

تـصـويـرُ نـدمِ الـكـافـريـن على فـواتِ الـنَّـجـاةِ وذهابِ التَّوبة

آثَر النّظم الكريم - لِتدقيق المعنى الَّذي يُسيطر على الكفار حين تَشْخَص أبصارُهم - التّعبيرَ بالماضي ﴿كُنَّا﴾؛ أي: إنّ الأمر قد نَفَدَ، وصار تدارُكُ الفُرصة مُحالًا؛ فزمانُه قد انطوى وصار إلى الوراء، وهيْهات أن يعود! وفي ذلك إظهارٌ لشِدَّة الحَسْرة والجَزَع وتمكُّنِ النّدم - الَّذي لا يُعيد فرصةً ولا ينفع بشيءٍ - على نفوسهم.

براعةُ استعمالِ حرفِ الظَّرفيّة ﴿فِي﴾:

تصويرُ الكافرين شِـدَّةَ غفلتِهم دلـيـلٌ عـلى عـنـادِهـم في الدُّنيا

دلَّ حرفُ الظّرفيّة في قول الكفّار: ﴿كُنَّا فِي غَفْلَةٍ﴾ على "تمكُّن الغفلة منهم؛ حتّى كأنّها محيطةٌ بهم إحاطةَ الظَّرف بالمَظْروف؛ أيْ: كانت لنا غفلةٌ عظيمةٌ؛ وهي غفلةُ الإعراض عن أدلَّة الجزاء والبعث"[1]، وفيها إشارةٌ إلى ما لَفَّهُمْ من ضلالٍ وما أعماهم من استكبارٍ، وأنّهم كمَن غَطَّ في وحْلٍ، وغاب في غيهَبٍ، وكأنّهم قد غاصوا في الظّلمات ولم يتبيَّنوا هدًى، فَحَرفُ الظّرفيّة ﴿فِي﴾ مُصوِّرٌ ومُعبِّرٌ عن حالِهم، ولن يُعبِّرَ عن هذا المعنى الاسمُ لو قيل: (قد كنّا غافلين)؛ لأنّ دلالةَ الظّرفيّة المُعبِّرة والمُصَوِّرة حينَئِذٍ ستختفي تمامًا؛ لذا عبَّروا بها إمعانًا في التّحَسُّر والتّندُّم، وحُقَّ لهم ذلك.

بلاغة الاستعارة في لفظ ﴿غَفْلَةٍ﴾:

الغفلةُ بِئرٌ عميقٌ تُغَيِّبُ أصحابَها في الضّلال

في تقييد الكفّار بالغفلة ظَرْفًا لهم في الدّنيا استعارةٌ؛ وذلك بتشبيه الغَفْلة ببِئْرٍ عميقٍ مُظْلم سَقطوا فيه، وحُذِف البِئْر وأُقيمتْ الغَفْلةُ مقامَه، والقرينة على ذلك حرفُ الظّرفيّة ﴿فِي﴾، وفي ذلك مبالغةٌ عن شِدّة غفلتِهم، وأنّها لم تكن مبرَّرَةً؛ بل كانت عِنادًا، وذلك لا يتأتّى لو جاء التّعبير على سبيل الحقيقة، كما لو قالوا: (قد كنّا غافلين).

نوعُ ﴿مِّنْ﴾ ودلالتُها:

البعثُ هو القضيّة الّتي بدأ التّكذيبُ بها وما بعدَه مُتفرِّعٌ عنه

ظاهرُ حرف ﴿مِّنْ﴾ في قولهم: ﴿كُنَّا فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا﴾ يدلُّ على الابتداء؛ أيْ: "مبتدِئَةٍ من اعتقاد هذا البعث؛ فكنّا نُكذِّب به؛ فعمَّتْنا الغَفْلةُ"[2]؛ وهذا الظّاهر هو الأوْلى بالسّياق العامّ في القرآن؛ إذ إنَّ البعث هو بداية الإنكار وسببُ الغفلة، وما بعدَه كان بسببه، إذ إنَّ أكثر القضايا الَّتي دار حولَها الجدلُ والتّكذيب هي قضيّة البعث،

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 17/ 151.
(2) البقاعيّ، نَظْم الدّرر: 12/ 482.

وقيل: إنَّ حرف ﴿مِّنْ﴾ دالٌّ على معنى التّجاوز؛ أيْ إنّها نابت عن حرف (عن)؛ أيْ: قد كنا في غفلةٍ أعمتْنا عن هذا، وكنّا محجوبين عن رؤيته، وكنّا مخذولين عن الإيمان به، وهذا المعنى مفهومٌ من الجملة، لا من حرف ﴿مِّنْ﴾؛ فلا داعي للقول به، مع منافاته للأليق بظاهر الاستعمال القرآنيّ.

براعة استعمالِ اسم الإشارة ﴿هَٰذَا﴾:

تصويرُ النَّدمِ بالألفاظ ولغة الجسمِ

في استعمال اسم الإشارة ﴿هَٰذَا﴾ إيحاءٌ بشعورهم قُربَ معالجتِهم آلامَ ما عاينوه حينَئِذٍ، وأنّهم بصدد مباشرته حالًا؛ لأنَّ اسم الإشارة ﴿هَٰذَا﴾ للقريب الَّذي باشروا رؤيتَه عَيانًا، وكادوا يُقحَمَون فيه فِعلًا. "فالمشارُ إليه بـ ﴿هَٰذَا﴾ هو مجموعُ تلك الأحوالِ من الحشر والحساب والجزاء"[1]، وهو يوحي باستحضار النَّدم الشّديد، كأنَّهم يُردِّدون الإشارةَ إلى الموقف باللَّفظ والجسد والعيون.

دلالةُ استعمال حرف ﴿بَلْ﴾:

أصلُ الغفلةِ الوقوعُ في الظُّلمِ والتَّكذيب في المعادِ

أداة ﴿بَلْ﴾ في الآية مُستعملةٌ للإضراب الانتقاليّ لا الإبطاليّ؛ لأنّهم تَدَرَّجوا بها من الإقرار بذنبٍ فاحشٍ إلى الإقرار بذنبٍ أفحشَ وأفظع دونَ أن يُلغوا الذّنب الأوّل؛ لأنَّهم حقًّا كانوا في غفلة؛ بل هي الَّتي أودت بهم وأدَّت بهم إلى ظُلم أنفسهم؛ فهم لم يتراجعوا عن اعترافهم أنَّهم كانوا في غفلة من البعث وتوابعه؛ بل انتقلوا إلى ذِكْرِ جُرمٍ أفظع؛ وهو الَّذي تسبَّب في سقوطهم في الغفلة، وهو الظّلم الَّذي لا يغيبُ عن معناه الشِّرك.

سِرّ تَكرار لفظ ﴿كُنَّا﴾:

مارسَ الكفّارُ جُرْمًا بعد جُرْم؛ فتجرَّعوا ندامةً بعدَ أخرى

في تكرار الفعل ﴿كُنَّا﴾ في قوله تعالى: ﴿بَلْ كُنَّا ظَٰلِمِينَ﴾ بعد تقدُّم ذِكْره في قوله تعالى: ﴿كُنَّا فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا﴾ تَعديدٌ لأنواع

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 17/ 152.

الضّلال الَّذي مارسوه في الدّنيا نوعًا بعد نوعٍ، وفي التّعديد دَعْمٌ لمعاقبة النّفس المُجرمة، وقصدُ إيلامِها لِسوء ما قدَّمت في الدّنيا، حين كانتِ الفُرصة مواتيةً، وفي تكراره تَكْثيفُ النّدامة الَّتي يتجرّعونها حين لا تنفعهم ندامةٌ.

نُكْتَةُ اختيارِ وصفِ الظُّلم دون غيره:

الظُّلمُ سببُ كلِّ خطيئةٍ ويدخل فيه الشِّركُ

في اختيار لفظ (الظّلم) في قوله تعالى: ﴿بَلْ كُنَّا ظَٰلِمِينَ﴾ دون (الكفر) أو (الشّرك) وهما أشنع استدعاءٌ لِلسَّبَب الَّذي يُضاعف عليهمَ الحسْرةَ، ويزيدُهم ندمًا على ندمهم؛ فقد ظلموا أنفسَهم، وظلموا الأنبياءَ والمُرسلين بتكذيبهم ومحاربتهم؛ بل قتلهم أحيانًا، وظلموا عبادَ اللّهِ تعالى الصّالحين والمُصلحين؛ فحُقَّ لهم التّندُّم والتّحسُّر، كما أنَّ الظّلم هنا يدخل فيه معنى الشّرك؛ إذ ﴿إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴿١٣﴾﴾ [لقمان: 13].

❁ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

الحَدَب والتّل:

الحَدَبُ ما ارتفع من ظهر الأرض فسُمّي حَدَبًا[1]، ويدخل فيه غَليظُ الأرض ومُرْتَفِعُها، قالَ الفرّاءُ: ﴿مِّن كُلِّ حَدَبٍ يَنسِلُونَ﴾: مِنْ كُلِّ أكَمَةٍ، ومِنْ كُلِّ مَوْضِعٍ مُرْتَفِعٍ، والجَمْعُ: أحْدابٌ وحِدابٌ[2].

الحَدَبُ ما ارتفع من ظهر الأرض مُطلقًا وهو أعمُّ من التّلِّ

والتَّلُّ من التُّرابِ مَعْروفٌ، واحِدُ التِّلال، والتَّلُّ من الرَّمل: كَوْمَةٌ منه، وكِلاهُما من التَّلِّ الَّذي هو إلقاء كُلِّ جُثَّة، والجَمْعُ: أتْلال؛ والتَّلُّ: الرّابيَةُ، والتِّلال عند العَرَبِ: الرَّوابي المَخْلوقَةُ[3]؛ وعليه فدلالة الحَدَب أعمُّ من التَّلِّ.

(1) الرّاغب، المُفردات: (حدب).
(2) ابن منظور، لسان العرب: (حدب).
(3) ابن منظور، لسان العرب: (تلل).

النَّسل والمَشيُ:

النّسلُ العَدْوُ
السّريعُ والمَشيُ
الانتقال البطيء

النَّسْلُ مأخوذٌ من نَسَلَ: إذا عَدا، وأسْرَعَ[1]؛ وهو من مشية الذّئب، والمشيُ الانتقال من مكانٍ إلى مكانٍ بإرادةٍ[2]؛ وهو للانتقال من مكانٍ إلى آخر دون سُرعة؛ فالمشيُ للانتقال المتوسط، والنّسلُ لما فيه سُرعةٌ وخِفَّة.

(1) الرّاغب، المُفردات: (نسل).
(2) الرّاغب، المُفردات: (مسى).

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد الرابع والثلاثون،
سورة الأنبياء من الآية 89 إلى سورة الحَجّ الآية 50
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1446هـ - 2024م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2024م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: المجلد الرابع والثلاثون، سورة الأنبياء من الآية 89 إلى سورة الحَجّ الآية 50
[إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2024.
مج. 34 ، 800 صفحة؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-732-76-1
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 34 : المجلد الرابع والثلاثون، سورة الأنبياء من الآية 89 إلى سورة الحَجّ الآية 50.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن-
ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي : 978-9948-732-76-1
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-3990244 بتاريخ 2024/11/15م،
مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري
الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»